فلسفة اليونان في عهد الرومان

تمهيد

كان لعلوم اليونان وفلسفتهم تأثير عظيم في العالم اليوناني قبل التاريخ المسيحي فلم يكن النفوذ الروماني في عهد اغسطس قيصر باوسع نطاقاً وارفع رواقاً من العلوم اليونانية . وقد بلغت الفضيلة الرومانية اوجها في تعليم زينون الرواقي وانتشرت الرذيلة الرومانية كل الانتشار في ظلال تعليم ابيكوروس . وهاتان الفلسفتان شغلتا مكاناً واسعاً من تاريخ البشر الادبي . لكنهما لم تبلغا قط ما بلغتاه في صدر التاريخ المسيحي من اتساع نطاق النفوذ والاخذ بمجامع العقول لان زعماءها واتباعها تناصروا كل فلسفة العالم وحكمته وانشوا في اطراف المعمور يبشرون تعاليمها بين الجمهور

الفلسفة الرواقية

وضع هذه الفلسفة الفيلسوف زينون اليوناني الذي وُلد في فينيس سنة ٣٥٠ ق.م . وقد روي عنهُ انهُ مال في صباهُ الى التجارة فاشترى مرة بضائع وارسلها في مركب الى احدى مدن فينيقية فهبَّت على المركب ريحٌ شديدةٌ اغرقتهُ وقضت على زينون بتحمل خسارة لا مزيد عليها . وكان ذلك آخر عهدهِ بالتجارة لانهُ لم يلبث ان انقطع عنها ويرح وطنهُ شاخصاً الى اثينا حيث عثر في احدى مكاتبها على كتابات زينوفون وسقراط فألمَّ منهما بمبادىء الفلسفة وتوسع فيها بما اخذهُ عن كراتس وزينو كراتس حتى اذا رسخت قدمهُ فيها ونال بغيتهُ من التضلع منها أنشأ في عاصمة بلاد الفلاسفة مدرسة طارت شهرتها في البلاد وتقاطر اليها الطلاب من كل صقع وناد . ويقال ان بطليموس فيلادلفوس ملك مصر كان يأمر سفراءهُ في اثينا ان يحضروا مدرسة زينون وينقلوا اليهِ ما يأخذونهُ عنهُ ويتعلمونهُ منهُ

ومما جاء عن هذا الفيلسوف انهُ ظلَّ منقطعاً للتدريس في هذه المدرسة نحو خمسين سنة ومات شيخاً كبيراً معروفاً بحسن السيرة وشدة العزم والاقدام . وخلَّف آثاراً ادبية تحيي ذكرهُ مدى السنين والاعوام

وعُرفت فلسفتهُ بالرواقية نسبة الى الرواق الذي اسس فيهِ مدرستهُ . وانتظم في سلكها ارفع رجال العالم الوثني فكراً واسماهم مبدأً في اواخر الجمهورية الرومانية واوائل حكومتها الملكية

ومن معتقدات الرواقيين ان الانسان انما يمتاز بالفضيلة . وان اللاهوت روحٌ عامٌّ يحيي الكون كلهُ وان جميع البشر اعضاء جسدٍ واحدٍ مشتركون في روح المحبة واحد

ولما استحكمت الوثنية مثلت هذه الفلسفة للعود عن حرمة الفضيلة وتأهبت للجهاد في سبيلها حتى قال «لزوم متابعة الفضيلة والواجب يحكمان على افكار الناس ويسوسان ميال البشر من غير ان يكون للوقوع العواقب دخل في حكم والعقود . ولم تأذن قط لاعتقاد الخلود في ان يكون باعثاً او محركاً على العمل . واليك بعض مبادئها : —

« استودع نفسك القدر مسروراً ودعه يستخدمك متقدماً لاية نتيجة ارادها »

« كن كرأس في البحر تلاطم عليه الامواج بلا انقطاع وهو قائم على قدم الرسوخ والثبات يسكن عجيج الامواج ويكبح جماح التيارات »

سر على السوام في اخصر طريق . فالطريق القصرى هي الطريق الطبيعية الفضلى . واتق اليأس بدرع الامل والتزم الامانة والاخلاص في كل قول وعمل »

« كل ما هو جميل فهو جميل لذاته وفي ذاته ينتهي جماله وليس للمدح يد في تكوين شيء منه »

« من يتعمد نشر فضيلته فهو غير عامل للفضيلة بل للشهرة »

« يظل الرجل العظيم عظيماً ولو عاندته الاقدار ولصق من شدة ذله بالتراب »

« كل من لم يشعر بوجوب اجتناب الرذيلة ولو كانت محجوبة عن عيون الآلهة والناس فهو ليس على شيء من الفلسفة الحقيقية . واحرى الاعمال بالمدح عمل يعمل لغير قصد المباهاة ولقصر عيون البشر عن ملاحظته »

الفلسفة الايكورية

وضع هذه الفلسفة ايكوروس او ابيقوروس (ويقال له ابيكور او ابيتور) احد مشاهير حكماء اليونان الذي يُظَنّ انه ولد في جزيرة ساموس في اواسط القرن الرابع قبل المسيح . طلب الفلسفة في حداثته فدرس العلوم في وطنه وشخص الى اثينا مهبط الحكمة والفلسفة فاخذ ما شاء من دروس الحكمة عن بمفيليوس وغيره ثم انشأ مدرسة تسابق اليها الطلاب من كل جانب

وقد قسم فلسفته الى ثلثة اقسام قانونية وطبيعية وادبية . فالقانونية مرجع الحكم وقوامه وفيها قاعدة تعصم من الخطإ وهي : كل ما اثبتته الحواس فهو حقيقي .

وكان فحوى فلسفته الطبيعية ان كل ما في الكون من معبودات ومخلوقات انما وجد بعلة واحدة هي اتحاد الجواهر الفردة فلا شيء من العدم ولا شيء الى العدم . واختلاف صور الاشياء ناتج عن حركة الجواهر وعدم ثباتها على حالة . ونتيجتها ان ليس لهذا الكون اله يدبر امورهُ ويدبر شؤونهُ وان العالم كلهُ من عمل الصدفة وان السرمدية والحكمة سفيتان الا من

الجواهر المجردة . ومن معتقداتها ان الالهيات ادنى رتبة من الطبيعيات وان المعبودات او الآلهة لا تشغل كل مكان تشغله الجواهر وهي دون الجواهر في الالهية لانها لم توجد الجواهر بل الجواهر اوجدتها على الصورة والمثال اللذين اوجدت فيهما البشر . وقد قال فيها لقريطوس احد مشاهير اتباع ابيكوروس ما تعريبهُ : —

يعيش باوف الأمن آلهة العلى بعيدين عنا ما لهم بالورى خبرُ
وكلُّ الهٍ مستقلٌ بنفسهِ وعبء ثقيلٍ مطلقاً بني البشرْ

على انهُ قال في كتابٍ لهُ ان الآلهة ليسوا سوى مخلوقات الوهم والخوف

اما فحوى فلسفة ابيكوروس الادبية فهو النفي الصريح لوحدة الذات الالهية وقدرتها وحكمتها وعدلها وعندهُ ان النواميس الادبية والطبيعية ليست من الله . وان الانسان وجد اتفاقاً كما ينبت الفطر على الدمن فاذا مات كان موتهُ مؤبداً لا حشر بعدهُ ولا دينونة . فليس للطالحين ان يهابوا عقاباً ولا للصالحين ان يرجوا ثواباً

واساس هذه الفلسفة التعليم بان السعادة الزمنية هي الخير الاعظم وان غاية كل فلسفة اسعاد الناس واعانتهم على تحصيل السعادة فهي اذاً ضد الفلسفة الرواقية على خطٍ مستقيم

ومع ذلك اعتنقها كثيرون وتذرعوا بها الى الاعتذار عما ارتكبوهُ من المنكرات وحاولوهُ من المحرمات . والذين يحاولون المحاماة عنها من اتهامها بكونها رذيلةً يقولون ان واضعها كان رجلاً بلا عيب وان تعليمهُ كان ضد محبة الشهوات وان العمل بموجب مبادئهِ ينيل الانسان اسمى الفضائل . ولكن هب ان ذلك كذلك فليس كل انسانٍ قادراً على التمييز التام بين انواع اللذائذ المختلفة وعلى ادراك اسباب السعادة الحقيقية . لان الراحة والفرح والشهوة الفاظ مرادفة للسعادة في مذهب اكثر الناس . فمن يعتنق الابيكورية يدين في الغالب للترف والرخاء ويستسلم للشهوة والرذيلة

هذا ومما يؤيد القول عن انكار هذه الفلسفة للخلود او الوجود بعد الموت مكتوبات اتباعها وما تركوهُ من النقوش على ضرائح القبور وغيرها . فمن امثلة ما كتبوهُ على الضرائح "عشتُ ولم أؤمن بشيءٍ وراء القبر" . "نحن المضطجعين هنا في قبضة الموت لسنا سوى عظام بالية ورماد" . "لم أكن فكنت . وُجدتُ والآن لم أعد موجوداً" . هذا الصحيح ومن يقل غير ذلك فهو كاذبٌ" . "لم أكن شيئاً ولستُ شيئاً . فكُلْ ايها الحيُّ واشرب وافرح وتعالَ" "حييتُ مرةً والآن انقضت حياتي فلا اعلم عنها شيئاً وهذا لا يهمني" . "يامن يقرأ ما كتب على ضريحي افرح في حياتك لانهُ ليس بعد الموت من فرح ولا سرور" اسعد داغر